كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

المقياس: مدخل إلى الفلسفة العامة الفئة: طلبة سنة أولى علوم اجتماعية

المحاضرة الرابعة : الشك الفلسفي وضروراته في تاريخ الفلسفة

مدخل: أبدا لا يسعنا الإقرار بدوغمائيات الخطاب الفلسفي على مر الأزمنة والعصور، فقد شهد الفكر الفلسفي اختلافا وتنوعا لا حصر في المسائل التي تعرض لها بالتحليل والبيان، عبر سلسلة من الحوارات والجدالات والمناقشات الحاسمة التي أفضت إلى التواضع السوي على أهم سمات التفكير الفلسفي. وعلّ أبرز سماته التي أحالت القضايا الفلسفية غاية في العمق والفهم والتنوع هو ما نصطلح بالشك. وقد كانت للفلسفة نصيب جلي في مشكلاتها، إذ قامت مذاهب أنشأته وأخرى ناصرته وايدت أطروحاتها خلال مسارات التقدمية لأبحاث الفلسة منذ عصور خلت.

01 ــ المفهمة والأهمية ابتداء:

1 ــ 1ــ مفهوم الشك: ورد في معجم الفلسفة لــ'جميل صليبا' تعريفا للشك، وأحسن ما تبينته فيه الجمع والمنع والشمول، إذ يقول: " الشك هو التردد بين نقيضين لا يرجح العقل أحدهما على الآخر، وذلك لوجود أمارات متساوية في الحكمين، أو لعدم وجود أية أمارة فيهما. ويرجع تردد العقل بين الحكمين إلى عجزه عن معاناة التحليل أو إلى قناعته بالجهل. لذلك قيل: إن الشك ضرب من الجهل، إلا أنه أخص منه... وقيل الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما و لم يطرح الآخر فهو ظن، وهو بمترلة اليقين (تعريفات الجرجاني)... والشك المنهجي (Doute méthodique) عند ديكارت أيضا هو الطريقة الفلسفية الموصلة إلى اليقين، قال 'ديكارت' : ينبغي لي أن أرفض كل ما يخيّل إليّ أن فيه أدنى شك، وذلك لأرى هل يبقى لدي بعد ذلك شيء لا يمكن الشك فيه أبدا. وهذا شبيه بقول 'الغزالي' : فقلت في نفسي:

أولا أن مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي، فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك... (الغزالي: المنقذ من الضلال ص 59)... وقد قال 'كلود برنار' أيضا: يجب على العالم أن يفرّق بين الشك والريب. فالريبي ينكر العلم ويؤمن بنفسه، أما المتشكك فإنه يشك في نفسه ويؤمن بالعلم"[1].

وجاء في تعريف التهانوي للشك في كتابه: 'كشاف اصطلاحات الفنون' قوله: " بالفتح وتشديد الكاف هو تجويز أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر. وقيل اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عنده بالنقيضين، أو لعدم الإمارة فيهما، والشك ضرب من الجهل وأخص منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسا. فكل شك جهل ولا عكس. والشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه على الآخر، كذلك يطلق على مطلق التردد، كقوله تعالى: ' لفي شك منه'. وعلى ما يقابل العلم... والرّيب ما لم يبلغ درجة اليقين وإن ظهر نوع ظهور. ويقال شك مريب، ولا يقال ريب مشكك. والشك سبب الريب كأنه شك أولا فيوقعه الشك في الريب. فالشك مبدأ الرّيب كما أن العلم مبدأ اليقين. والريب قد يجيء بمعنى القلق والاضطراب. وفي الحديث " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[2].

" وقد اشتق لفظ الشك من اللفظ اليوناني skeptestai وكانت تعني الفحص بعناية والتنقيب ثم تحول مع الزمن إلى إنكار المعرفة جزئيا أو كليا. ولعل هذا الاشتقاق من جهة اللغة، وذلك لأن حالة الشك معقودة في وجودها بالفكر الإنساني مد وجد، ويختلف الشك عن الظن 'كالشك في التردد، إلا أنه يترجح أحد المعتقدين في حكمه"[3].

([1]) - جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص ص 705 - 706.

[2] - التهانوي: **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، ج1، (أ - ش)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص ص 1037 - 1038.

[3] - حسين صبري: **رواد الشك المنهجي**، ضياء للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011، ص 24.

1 ــ 2 ــ **أهمية الشك في الفلسفة:** إنما يتوجب على العاقل النظر بالعقل في القضايا والمسائل المرتاب فيها، والشك هاهنا يتوجب العلم والمعرفة. إذ لا يشك في المسألة إلا عارف بمتونها ودلالاتها وما يستوجب البرهان والتحليل والاستنباط ذلك أن ممن يتعرض بالشك لمسائل تفوق معارفه وفهمه قد يتعرض له حينها بالظنون والإساءة أكثر مما يستبين من خلالها الصواب والحقيقة. وقد أورد الزمخشري قولا في ذلك جاء فيه: " النظر يضاد العلم بالمنظور فيه، ويضاد الجهل به، والشك فيه. فوجه مضادته للعلم أنه بحث عنه، وابتغاء توصل إليه وذلك يناقض تحقق العلم، إذ الحاصل لا يبتغى. وسبيل مضادته للجهل أن الجهل اعتقاد يتعلق بالمعتقد، على خلاف ما هو به، والموصوف به مصمم عليه، وذلك يناقض التطلب والبحث. والتشكك تردد بين معتقدين، والنظر بغية للحق. فهو إذا مضاد للعلم وجملة أضداده"[4].

ولعل أهمية الشك في تاريخ الفلسفة معقودة مع عصور الفلسفة منذ العصر اليوناني، حين تجادل مذهب الوحدة مع مذهب الكثرة، فكان الضدان: الثبات والتغير، والقبلي والبعدي، والعقلاني والحسي. ولا شك ان المدارس الفلسفية اليونانية قد حفلت في إرثها المعرفي بتخصيص مباحث لنظرية الشك نحو ما ظهر عند السفسطائيين وتجديلاتهم مع مذهب سقراط، أو ما عهدناه في السابق بين بارمينيدس وبين هيراقليطس.

1 ــ **فلسفة الشك عند اليونان:** ظهرت فلسفة اليونان حين انتفت الوحدة بالاتفاق بشان مقاصد الأبحاث ومنطق بحث الفلاسفة في المشكلات والمعضلات العديدة. وقد كان للتشكيلات المذهبية شأن حاسم في كثرة التجديلات والخصومات الفكرية التي أبانت عن التروع الريبي أو التشككي في خطابات المعرفة لديهم. وقد اتخذ السوفسطائيون من تلك المظاهر الصراعية والخلافية موردا مناسبا للتضلع في خطابات الشك والتشكيك التي تمخضت عنها اضطرابيات فكرية، تفردوا ببلاغة خطاب وقوة محاجة وقد كان ذاك نهجهم. نشأت

[4] - الجويني: **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، تحقيق، محمد يوسف موسى، مكتبة الحانمجي، مصر، ص 05.

عنها مفارقات ومغالطات لا حصر لها، تصدى لها سقراط بحكمته وأعاد العقل إلى سوائه بعد طول مناظرات وحوارات انتهت بهزم السفسطائيين وموت سقراط. لكن الشك لم يمت فقد عرف له نمطا مغايرا عند الأكاديميين المتأخرين.

1 ــ 1ــ **الشك البيروني نموذجا:** بيرون (365 ــ 275) رائد ومؤسس مذهب الأدرية في الفلسفة المنكر للعلم واليقين، تتلمذ على أيادي الميغاريين وعرف بأنه أحد أتباع ديموقريطس... لم يدوّن آراءه وإنما دكرها تلاميذه، ويرجع ما بقي لنا من أقوالهم إلى ما يأتي: كل قضية تحتمل قولين ويمكن إيجابها وسلبها بقوة متعادلة. فالحكمة في العدول عن الإيجاب والسلب والامتناع عن الجدل والوقوف عند الظواهر(فإن الشك لا يتناول الظواهر وهي بيّنة في النفس، ولكنه يتناول الأشياء في أنفسنا، والشاك يقر أن الشيء الفلاني يبدو له أبيض، وأن العسل حلو، وأن النار تحرق، ولكنه يمتنع عن الحكم بأن الشيء أبيض وأن العسل حلو وأن من طبيعة النار أنها تحرق... فالناس يخطئون إذ يتوهمون سعادتهم وشقاؤهم في الأشياء أنفسها، ويعتمدون عليها كأنها باقية. أما إذا اقتنعوا أن الأشياء زائلة والأحوال متقلبة انتفى تصديقهم بها وانعدم ميلهم إليها أو جزعهم منها[5].

لا شك أن شك فلسفات العصور القديمة مختلفة من حيث الدلالة والأثر عن فلسفات لاحقة نحو فلسفة العصور الوسطى، حيث امتزج خطاب الشك بفلسفة الدين مقاربة له بخطاب العقل، ولنا في تجربة الغزالي نموذجا.

2 ــ **فلسفة الشك في العصور الوسطى:**

2 ــ 1 ــ **تجربة الشك عند الغزالي: الأثر والقيمة:** لم يكن شك الغزالي مماثلا لشكوك معاصريه من علماء ومتكلمين أو فلاسفة، ذلك لأن تجربة الشك عند الغزالي كانت أشد وطأ عليه إذ ألمت به ألما وضيقا قبل أن ينفرج الضيق ليزاح عنه غم اللبس بأن أنار الله قلبه.

---

[5] ـ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1936، ص 312.

كذا لم يكن شك الغزالي اعتقادي ولكنه كان شكا علميا ومنطقيا وسلك به مسالك أهل المنهج، بطريق العقل والبرهان. و لم يخطر ببال الغزالي الشك بحقائق قطع اليقين بشأن يقينها وثبوت بداهة حقيقتها نحو مسألة وجود الله أو الشك في ذاته أيضا، وإنما كان شكه نهجا لبلوغ مترلة الحق الذي كان يغمر قلبه وعقله، وقد باشر نهج الشك بوضع أدوات ومصادر المعرفة موضع النظر والاختبار فكانت له استنباطات وأحكام داحضة نوردها من خلال ما خطه في كتابه 'المنقذ من الضلال' إذ يقول: " وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله له وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا... فقلت في نفسي: أولا، إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم، ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار ببطلانها مثل من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورث ذلك شكا وإنكارا... ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه، هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني"[6]. وعرض الغزالي لمسألة التضليل والخداع في حطابات السفسطائيين وما نسب إليهم من جحد للعلوم، إذ يقول: " ثم فتشت في علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع من اقتباس المتيقنات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولا لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له، فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات

---

[6] - أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، والموصّل إلى ذي العزّة والجلال، مجمع البحوث الإسلامية، مصر، 1998، ص ص 161 - 163.

والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها، فانتهى بي طول التشكك إلى أن ألم تسمح لي نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر في الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة تعرف أنه متحرك... وتنظر في الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد... فقالت المحسوسات: بم تأمن أو تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كان واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذّبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر في تصديقي..."[7]. إن أنت كنت ناظرا في خطاب الغزالي نظر المسترسل في تتبع محطات نزوعه التشككي ستدرك مدى قدرة العالم على إفهام الخصوم والقراء والمحللين بتهافت بعض الأصول التي نعدها ينابيع ثابتة لنهل المعرفة واستنباط أو استقراء الأحكام المختلفة. فلا الحاس والمحسوس بمهتد لأثرهما في إدراك اليقين المعرفي، ولا المعقولات بقادرة على تخطي عقبة دونية المعارف الحسية ابتداء، ولا هي قادرة على الارتقاء بالمعرفة إلى ما هو أصوب من الحس، لأنها امتداد لها لا غير. كذا لم تنفعها القبليات التي كان يعتقد بدوغمائيتها ويقينها الذاتي. وقد اهتدى الإمام الغزالي في آخر تجربته مع الشك إلى نهج الكشف الإشراقي (الصوفي) اعتقادا منه بأنه نور يقدفه الله في قلبه، يزيح عنه غشاوات الحس وأوهام العقل ليولج به في علم اليقين الذي ينتفى عنده كل شك. وقد وصل الغزالي إلى مبتغاه إذ ابتدأ متشككا فانتهى متيقنا (بنور الله).

---

[7] - المرجع السابق نفسه، ص ص 64 - 65.

2 ــ 2 ــ **الشك وضرورته في فلسفة القديس أوغسطين:** بداية خطاب الشك الأوغسطيني تبتدئ مع خطابه النقدي الموجه للشكاك الأكاديميون إذ اعترضوا على فكرة مشروعية النشاط الحسي في تحصيل المعرفة وقد نشد الشك مطلبا إذ قال: " إن الناس مختلفون في الحياة، والتذكر، والعلم، والإرادة، والحكم، أهي تنتسب إلى الهواء أم إلى النار، أم إلى الدم؟ ولكن هؤلاء جميعا متفقون على أنهم يشكون. فهناك إذن حقيقة يقينية هي الشك، وهذه الحقيقة تقتضي أيضا حقائق أخرى مرتبطة بها وهي: الحياة، والتذكر، والعلم، والحكم، والإرادة"[8]. لكن لماذا وصل فلسفة الشك يقينا بملكات الحياة والتأمل؟ يجيب أغسطين قائلا: " لأن الذي يشك يحيا، والذي يشك يعلم أنه يشك، والذي يشك يريد اليقين، والذي يشك يتذكر ما يشك فيه، والذي يشك يحكم بأن الحقائق لا يمكن أن تؤخذ مباشرة بوصفها شيئا يقينيا، ومعنى هذا كله أن الشك أولا موجود وهو حقيقة. وثانيا أن العمليات النفسية المتصلة بهذا الشك هي أيضا حقائق يقينية"[9].

كان أوغسطين قديسا عارفا بأصول البحث والتحري عن القيمة المرجعية للحقيقة اليقينية دونا عن الحقائق المرتاب بشأنها، كان مؤمنا بالعقيدة التي اعتنقها ودافع عن تعاليمها، ومنها استلهم رشد الروح التي تسكنه. إنها روح الشك، التي استبطن منها أنطولوجيته الحقة. " إن روح الشك كانت روح أغسطين حين مغادرة وطنه إلى روما، ولكن هذا الشك لم يكن يتفق مع طبيعته من حيث إنها طبيعية إيجابية تنشد الحقيقة بأي ثمن. ولذلك عزم على أن يخرج من الشك خصوصا وأنه قد رأى علوما يقينية، من شأنها أن تقدم له المنهج الدي يجب أن يسير عليه. لقد كان في هذه الفترة يقول إن المعارف الحسية لا يمكن أن تؤدي إلى معرفة الحقيقة، وذلك راجع إلى الحجج التي أدلى بها الشكاك وعلى رأسهم أجربا Agripa"[10]. والأصل أن أوغسطين لم ينكر أثر الحس في إدراك الحقائق اليقينية، ولكن

---

[8] ـ عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1969، ص 22 ـ 23.
[9] ـ المرجع نفسه، ص 23.
[10] ـ المرجع السابق نفسه، ص 18.

اعتبرها نسبية إيمانا منه بان المعطيات الحسية طريق مؤدية إلى الإيمان لا إلى العلم. خلاف طريق العلم الذي تأتلف فيه أنشطة الحس والعقل والوجدان.

خاتمة: خلصنا إلى جلاء حقيقة بشأن شك المنهجيين وخلافهم قديما، وهو أن الشك تمكن من فكر الإنسان فتمرس عليه، وأيا ما كان نمطه (مذهبي أو منهجي) فإنه يترجم ثراء وتنوع الأبحاث الفلسفية إذ صيرت الأبحاث متجادلة خلافية ساهمت بقسط كبير في تنيوع وتغيير مسارات أبحاث العقل ضدا عن الدوغمائيات الاستكانية.